الفصل الخامس :

العمرية حلم الأجيال

العمريةُ حلمُ الأجيال

لو قرأ (عمر) ما كتب عنه ما وافق على أكثره ، ولعاتب الكتاب والمؤرخين ، وأظن أنه قد يجمعهم فى صعيد واحد ويعطيهم درسًا فى كيفية الكتابة ، وإن عماد الكتابة - أى كتابة - الإنصاف وتحرى العدل ، وإن كان هذا شيئًا عسيرًا ، فليس أقل من التنزه عن الهوى حبًّا أو كرْهًا .

وأغلب ما كتب عن عمر كان نوعًا من الإسراف عليه . هذا الإسراف ، لا أقول إنه أعطى عمر أكثر مما يستحق - فكل ما كتب عن عمر لم يوفه حقه - هذا الإسراف باعد بين عمر وبين الاقتداء به عمليًّا ، جعل الأجيال التى تلته تنظر إليه نظرة ملؤها الإعجاب والإجلال والتقدير ، هذا الإحساس جعل من عمر سورة من سور العظمة ، وآية من آيات الكمال والسمو الإنسانى ، ومن شأن العظمة والكمال أن تقطع ظهر من يحاول أن يتسنم ذراهما .

لن نلقى مثل عمر ، لن نلقى مثل عمر ، لن نلقى مثل عمر :

والأمر سواء بالنسبة للحكام والمحكومين .

فلا الحكام على استعداد أن يقتدوا بعمر ، لأنهم إن فعلوا ذلك لن يوفقوا إلى بعض ما وفق إليه عمر ، لأنهم لم يؤتوا مثلما أوتى عمر ، وأخشى ما يخشونه أن يوسموا بالفشل أو العجز فى الوصول إلى ما وصل إليه وقد حدث هذا مع من تولى الخلافة بعده وهو (عثمان بن عفان).

" عن ابن سيرين . قال : كتب عمر إلى أبى موسى : إذا جاءك كتابى فأعط الناس أعطياتهم واحمل إلى ما بقى مع زياد .. ففعل ، فلما كان عثمان كتب إلى أبى موسى بمثل

ذلك ففعل ، فجاء زياد بما معه فوضعه بين يدى عثمان ، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئا بذاته ، من فضة فمضى بها . فبكى زياد ، فقال له عثمان : ما يبكيك ؟

قال : أتيت أمير المؤمنين عمر بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهمًا فأمر به فانتزع منه حتى أبكى الغلام وإن ابنك هذا جاء فأخذ هذه فلم أر أحدًا قال له شيئا . فقال له عثمان : إن عمر كان يمنع أهله وأقاربه ابتغاء وجه الله ؛ وإنى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله ، ولن نلقى مثل عمر ، ولن نلقى مثل عمر ولن نلقى مثل عمر " .

" عن إسماعيل بن أبى خالد قال : قيل لعثمان رحمه الله : ألا تكون مثل عمر؟

قال : لا أستطيع أن أكون مثل لقمان الحكيم " .

هذا كلام أمير المؤمنين الذى تولى الخلافة بعد عمر ، يعلنها صراحة ، وبكل شجاعة بالرغم من أن الناس قريبو عهد بحكم عمر ، و مازلوا يعيشون فى ظلاله ومازالت آثار أقدامه وهى تجوس الطرق والدروب باقية وعبق شخصيته يضوع فى الأرجاء ، وصدى كلماته يتردد فى الأنحاء وروحه الشريفة تحل بالأزمنة المباركة والأماكن الطيبة . فليس أيسر على سيدنا عثمان بن عفان أن يأخذ المسلمين بما أخذهم به عمر ، ويسير فيهم سيرته فقد مهَّدَ له الطريق ، وذلل له كل حَزن ووعر ولكن الخليفة الجديد أدرك أن الأمر أكبر من ذلك وأخطر ، إن من الصعب بل من المحال أن يحل أحد محل عمر ، فالأمر ليس منصبًا يُدَارُ فور أن يشغله شاغلٌ ، ولا مقعدا شاغرا ينتظر من يجلس عليه ليستأنف دولاب العمل دورته .

والناس مغرمون بالمقارنة ، بين سابق ولاحق ، وكان المسلمون ينتظرون من عثمان أن يكون عمر آخر ، ولكن الخليفة الجديد قطع عليهم رجاءهم هذا ورد عليهم أمانيهم ، فلا أحد يستطيع أن يحل محل عمر ، ولا أنا أستطيع أن أكون عمر ، وكما قالها عمر بعد أن

تولى الخلافة فى حق الصديق (رحم الله أبا بكر لقد أتعب من جاء بعده) وقيلت فى حقه " رحم الله عمر لقد أتعب من جاء بعده " إلى اليوم وبعد اليوم.

وبالنسبة للمحكومين ، فليسوا على استعداد أن يطالبوا حكامهم أن يسيروا سيرة عمر ، لأنهم يعلمون أنهم إن طلبوا هذا الأمر من الحكام فسوف يكلفونهم من أمرهم عسرًا والناس فى هذا الزمن رفقاء بحكامهم أشد الرفق ، ويدعون لهم فى صلواتهم بالسداد فى آرائهم ، وبالتوفيق فى أعمالهم ، متمنين أن يستجيب الله لدعائهم ، فهم يلتمسون الرضا من الحكام ، أكثر وأحرص مما يلتمسُ الحكام الرضا منهم !!.

والناس فى كل الأجيال - لاسيما الأجيال المتأخرة - متعطشة إلى إيجاد العظماء والعباقرة الأفذاذ بين ظهرانيهم ، وإن عثرتْ على أشباههم فى الواقع خلعتْ عليهم صفات العظمة والسمو ، وأسرفت فى ذلك إسرافًا شديدًا ، وإن عزَّ عليها أن تجدهم فى واقع حياتها تلمستهم فى الخيال والوهم ، ونسجتِ الحكايات وحاكتِ الأساطير. فالأجيال تستطيع أن تتصور أن تخلو حياتها من أى شىء إلا أن تخلو حياتها من عظيم هنا وعبقرى هناك ، وبطل بين يديها ، فهذا يعطيها عِوضًا عن الإحساس بتفاهة حياتها، وضآلة طموحاتها ، ويحمل عنهم عبء العمل والجد ، ويريحهم من تعذيب ضمائرهم وتأنيب نفوسهم على ما ينفقون أعمارهم فى عبث ولهو وهزْل .

ونحن لا نستطيع أن نحذف ما أضافته الأجيال المتعاقبة إلى سيرة عمر من مبالغات وزيادات ؛ لأن تلك الزيادات والمبالغات تصور نفسية تلك الأجيال ، والمثل التى تطمحُ إليها ، ونظرتها إلى ما يجب أن يكون عليه العظيم .

وتلك المبالغات والزيادات ليست تحريفا لصورة العظيم أو تزييفًا لها ، لأنها فرصة تجدها الأجيال لتشبع حرمانها ، وتروى ظمأها إلى الخير والعدل .

فلا ضير أن أتزيد فى عدل رجل ينصف أصلا بالعدل فأنا لم أنحله شيئًا غريبًا عنه أو أصفه بصفة هو خالٍ منها وكل ما فعلتُه أنى نظرتُ من خلال العظيم إلى قيمة العدل مجردة أو أن العظيم وبما يتصف به من صفات ، منح فرصة للأجيال أن تشارك فى مفهوم العظمة ، وتصل بالصفات إلى منتهاها وغاية ما تصل إليه

فإذا نظرنا إلى ورع عمر فهو الورع الذى لم تعرف الإنسانية مثله . وإذا نظرنا إلى عدل عمر فهو العدل الذى لم تعرف الإنسانية مثله وقس على ذلك جميع صفات عمر.

ولا يعنينا بعد ذلك أن نسأل : هل وصل عمر إلى تلك الدرجات العلا أم لا ؟

هل تسنم عمر تلك الذرى التى دونها ذرى أم لا ؟

" فلا اختراع فى جملة أخبار عمر وإن جاز الشك فى بعضها أو جاز إسقاط الكثير منها ، ومن شاء فليشك فى هذا الخبر أو ذاك ما بدا له الشك ، وليسقط منها ما بدا له الإسقاط ، فسيبقى بعد ذلك جميعه خبرًا يدل على عدله ولا سبيل إلى نقضه ، وخبرًا يدل على رحمته ولا سبيل إلى نقضه ، وخبرًا يدل على غيرته ولا سبيل إلى نقضه ، وخبرًا يدل على فطنته ولا سبيل إلى نقضه ، ويبقى ذلك التركيب العجيب الذى هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل فى مصادر الأخبار" [1] .

فالأجيال وجدتْ فى عمر ما لم تجده فى غيره .

والأجيال إذا أنصفتْ رجلا ، فلا محيص لها عن هذا الإنصاف لأنها قلما تنصف !

وإذا أسرفتْ فى هذا الإنصاف فلا مندوحة لها ، لأنها ليس من شيمتها الإسراف فى الإنصاف والحمد مثلما هى مسرفة فى الذم والعيب والتنقص !

١- عبقرية عمر - عباس محمود العقاد (٦٣)

وعلى قدر خلو جيل من الأجيال من الجد والعمل وتحقيق الأعمال العظيمة والرقى بحياتهم ، على قدر إسرافهم ومبالغتهم وحرصهم على البحث عن عظيم وإيجاد مكانٍ له فى حياتهم ، أو خلقه ليكونوا على علاقة قوية به .

لأن إحساسهم بنقصهم يدفعهم إلى سد هذا النقص ، وجبر هذا الصدع فيلتمسون من يخرجهم من هذا التيه ، ومن يعبر بهم تلك الهوة الواسعة بين ما هم عليه ، وما يطمحون إليه ، على هذا فكل جيل كان يضيف إلى عمر شيئا أو يسرف أو يبالغ والذى دفعهم إلى ذلك فقر زمانهم وجدب حياتهم ، وخلوها مما يعوضهم عن تلمس شخصية مثل عمر أو غيره

ولكن لماذا لم تأخذ الأجيال عمر كما خلقه الله ؟

ولماذا لم تأخذ الأجيال عمر كما أراد هو أن يكونه ؟

منزها عن كل إضافة ، خالصًا من كل مبالغة ، خاليا من كل زيادة ؟

ذلك لأن عمر استحال إلى قيمة ، إلى مبدأ ، إلى معنى من معانى العدل والخير والجمال .

فحينما تذكر الأجيال عمر ، تذكر تلك القيم والمعانى منسوبا إليها عمر ، ولا ينسبونها إلى عمر ، وفرق كبير أن تقول عدل عمر وعمر العادل .

عندما تقول عمر العادل ، فأنت تذكر رجلا وُصِفَ بالعدل ، عُرِف عنه العدل اشتهر به . وهؤلاء كثيرون فى كل الأزمنة ولكن حينما تقول عدل عمر ، فأنت تشير بذلك أن هذا الرجل أصبح قيمة فى حد ذاته ، معيارًا يُقاس به كل صور العدل ملهمًا يستلهمه كلُ من يريدُ أن يدرك العَدْل فى أنصع صوره وأجل معانيه

والقيم والمعانى خارجة عن كل تحديد وتحجيم ، وخروجها عن التحديد والتحجيم هو الذى جعلها قيمة ومعنى . هو ما منحها صفة الإطلاق ، على هذا فتلك القيم والمعانى للعدل

من المحال تطبيقها أو تحقيقها فى الواقع ولكن ليس كل ما لا يطبق فى الواقع منعدم الأهمية ، بل ربما تكون أسمى وأعظم الأشياء ما لا تطبق فى واقع الناس ، لأنها تضع لهم حدًّا لم يصلوا إليه فى وقتهم الحاضر وواقعهم المعاين حلمًا جميلاً ، رؤيا رائعة لعلهم فى يوم من الأيام يحققونها ، طالما هى قابعة فى قلوبهم ، تعتمل فى صدورهم ، فالقلوب والصدور واقع ، وما يوجد فى القلب ، وما يعتمل فى الصدر ليس ببعيد ولا بغريب أن يعاين بالنظر ويلمس بالحواس .